موقع الشيخ التركماني
https://www.turkmani.com

مقال: شعر ابن حزم الأندلسي

المصدر: مجلة جذور

بقلم: محمد خليل الزروق

رقم العدد: 9

تاريخ الإصدار: 1 يونيو 2002

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

https://www.turkmani.com

شعر ابن حَزْم الأندلسيّ

محمد خليل الزَّروق

1 - الديوان:

نشر «إحسان عباس» في كتابه «تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة» جزءاً من شعر «ابن حزم» تحت عنوان «قطعة من شعر ابن حزم»[1] عن مخطوط وصفه بأنه «بالمكتبة التيمورية»[2]. وهذا الجزء من مائتين وستة عشر بيتاً، في خمس قصائد وقطعة، على هذا النحو:

القصيدة الأولى من ثمانين بيتاً. مطلعها:

لك الحمد يارب والشكر، ثُمّْ لك الحمد ما باح بالشكر فمْ

الثانية في مائة وسبعة وثلاثين بيتاً، مطلعها:

من المحتمى لله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم

الثالثة من ثلاثة عشر بيتاً، مطلعها:

قالوا تحفظ؛ فإن الناس قد كثرت أقوالهم، وأقاويل العدا محن

القطعة من خمسة أبيات، أولها:

أنائم أنت عن كتب الحديث وما أتى عن المصطفى فيها من الدين

القصيدة الرابعة من ثلاثة وأربعين بيتاً، مطلعها:

أجل هو ربع قد عفته الروامس فهل أنت فيه وبب غيرك حابس

القصيدة الخامسة من ثمانية وثلاثين بيتاً، مطلعها:

مهّد القلب في خدّيه أدمعُه قد طالما شرقت بالوجه أضلعُه

وفي قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة قاريونس مخطوط كتب عليه في الورقة الأولى «ديوان ابن حزم»، وفي أوله من شعر ابن حزم كل ما نشره «إحسان عباس» بلا اختلاف في عدد الأبيات. وبعد هذا الجزء من الورقة الثانية عشرة كتب قبل قطعة: «هذا من شعر المعري وليس هو لابن حزم، بمداد يختلف قليلاً عما كتب به غيره. وكُتب من لزوميات المعري شعر كثير بلغ مائتي قطعة وتسعاً وثمانين قطعة، وكُتب بعد ذلك ثلاث قصائد لابن حزم، وبيت، كانت جميعاً مائة وثمانية عشر بيتاً، على هذا النحو:

أخ لي مشكور المساعي وسيد تسر بواديه إذا خانك الصحبُ

والبيت هكذا:

كأن لم يكن بينٌ ولم تك فرقة إذا كان من بعد الفراق تلاق

القصيدة الثانية من ستة وعشرين بيتاً، مطلعها:

بلغت من لذة الدنيا ذرى أربي من لذة العيش والسلطان والنشب

القصيدة الثالثة من اثنين وثلاثين بيتاً، مطلعها:

لم أشك صداً، ولم أذعر لهجران ولا شعرت مدى دهري بسلوان

هذا ما بلغنا من ديوان «ابن حزم»، وقد قال «الحميدي» (488): «وشعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم»[3]، ولكن جمعه هذا لم يصل إلينا، ووصل إلينا قطع من شعره في مصادر أخرى.

2 - المصَادر الأخرى:

لابن حزم شعر في بعض ما كتب، وفي بعض كتب التراجم والأدب. وأنا أذكر ما اطلعت عليه من ذلك؛ مكتفياً بالمصدر المتقدم عن التكرار.

ففي رسالة له عنوانها: «رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل» قطعتان، أولاهما من تسعة أبيات أولها:

إنما العقل أساس فوقه الأخلاق سور

وثانيتهما من ثلاثة أبيات أولها:

زمام جميع الفضائل عدل، وفهم وجود وباسُ[4]

فتلك اثنا عشر بيتاً[5].

وفي «الجذوة» لـ «الحميدي» سبع قطع على هذا النحو:

الأولى من ستة أبيات، أولها:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى

الثانية ثمانية أبيات من البائية التي بلغت في المخطوط تسعة وخمسين بيتاً، وأول الأبيات التي ذكرها «الحميدي»:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن ذنبي أن مطلعي الغرب

والقطع الباقية كل منها من بيتين، هذه أوائلها:

مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل باد وحاضر
أبنْ وجه قول الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق
لا تشمتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمتّرك

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم
يقول أخي شجاك رحيل جسم وروحك ما له عنا رحيل(6)

وفي «الذخيرة» لـ «ابن بسام» (542) غير ما ذكره «الحميدي» سبع قطع، على هذا النحو:

الأولى من ثلاثة أبيات، أولها:

تبغّ سواي امرءاً يبتغي سبابك إن هواك السباب

والثانية من خمسة أبيات أولها:

كفاني ذكر الناس لي ومآثري وما لك فيهم يا ابن عمي ذاكر

والثالثة من أربعة أبيات، أولها:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنت القرطاس بل هو في صدري

والرابعة من بيتين، أولهما:

من ظل يبغي فروع علم بدءاً ولم يدر منه أصلاً

والخامسة من خمسة أبيات، أولها:

كأنك بالزوار لي قد تبادروا وقيل لهم أودى على بن أحمد

والسادسة من ستة أبيات، أولها:

أبا عامر ناديت خِلاً مصافياً يفديك من دهم الخطوب الطوارق

وقد زاد على ما ذكره «الحميدي» من البائية الطويلة ثلاثة أبيات.

والسابعة من أربعة أبيات، أولها:

وذي عذل فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول[7]

وفي معجم الأدباء لـ «ياقوت» (621) غير ما مرّ قطعة واحدة من أربعة أبيات، أولها:

أنا العلق الذي لا عيب فيه سوى بلدي وأني غير طاري[8]

وفي «المعجب» لـ «المراكشي» (647) قطعة واحدة أيضاً من بيتين، أولهما:

أنمُّ في المرآة في كل ما درى وأقطع بين الناس من قصب الهند[9]

وفي «وفيات الأعيان» لـ «ابن خلكان» (681) غير ما ذكر قطعة من بيتين، أولهما:

أقمنا ساعة ثم ارتحلنا وما يغني المشوق وقوف ساعة[10]

وفي «طبقات الشافعية» لـ «السبكي» (771) قصيدته الميمية الطويلة التي رد بها على القصيدة التي بعث بها نقفور إلى المطيع بله، وهي فيما نشره «إحسان عباس» وفي المخطوط، ولا يختلف عدد أبياتها عند «السبكي» عما في هذين المصدرين[11].

وهذه القصيدة في «البداية والنهاية» لـ «ابن كثير» (774) أيضاً، لكن روايتها تنقصها ثلاثة أبيات[12].

وفي «نفح الطيب» لـ «المقري» (1041) غير ما مرّ قطعتان كل منهما من بيتين، أول الأولى:

فلو كانت الدنيا دوينك لجة وفي الجو ميعق دائم وعريق

وأول الثانية:

لا تلمني لأن سبقه لحظ فات إدراكها ذوي الألباب[13]

وأورد «سعيد الأفغاني» في كتابه «ابن حزم الأندلسي» سبعة عشر بيتاً من البائية الثانية، التي أولها:

بلغت من لذة الدنيا ذرى أربى في لذة العيش والسلطان والنشب

وعدتها في المخطوط ستة وعشرون بيتاً، وأشار إلى أنه نقلها عن «مجلة المتنبي، المجلد الأول»[14].

بقي حديث شعر «طوق الحمامة».

3 - طوق الحمامة:

أقول بدءاً: إني أشك في نسبة رسالة «طوق الحمامة» لـ «ابن حزم»، وهذا مبنيٌّ على جملة من الملاحظات:

أولاها - أنه لم يذكر أحد ممن ترجم لـ «ابن حزم» - فيما اطلعت عليه - هذه الرسالة إلا «المقرى» في «النفح»، ولم يذكرها عند حديثه عن مؤلفاته[15]، ولكن بعد ذلك بكلام، حيث روى خبراً عنه، وصدره بقوله: «قال ابن حزم في طوق الحمامة..»[16]. وقد توفى المقرى سنة 1041هـ، فبينه وبين ابن حزم ما يقرب من خمسة قرون. وقد نقل عنها «ابن القيم» (751) في كتابه «روضة المحبين»[17]، وبينهما ما يقرب من قرنين.

ثانيتها - أن أشعار «الطوق» ليست في مصدر آخر من كتب «ابن حزم»، وما وصلنا من ديوانه، وعند من ترجموا له فيما اطلعت عليه - إلا بيتين عند «المراكشي» الذي توفى سنة 647 في «المعجب»[18]، على كثرة هذه الأشعار. وربما قيل: إنها أشعار نظمت للرسالة من أول الأمر، لكن طريقته في إنشادها تدل على أنها قيلت

من قبل ذلك، وفي قصائد طويلة في كثير من الأحيان، فهو يقول تارة: «وأقول من قصيدة لي»[19] ومرة: «وفي ذلك أقول.. في كلمة لي طويلة»[20] وينشد قطعة يقول في أولها إنها من قصيدة، ثم يورد قطعاً يصدرها بقوله: «ومنها..»[21]، ولكن الأشعار نفسها تدل على أنها نظمت للموضوع الذي يتكلم فيه في أغلبها[22]، خاصة التكلف البادي عليها، فطريقة الإنشاد تدل على أنها قيلت من قبل، والأشعار نفسها لا تساعد على ذلك، وهذا أمر آخر يدعو إلى الارتياب.

ثالثتها - أن «ابن حزم» في رسالته التي عنوانها «رسالة مراتب العلوم» يدعو المتعلم إلى تجنب أنواع من الشعر منها شعر الغزل، فهو يقول: «وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب: أحدها: الأغزال والرقيق؛ فإنها تحث على الصبابة، وتدعو إلى الفتنة، وتحض على الفتوة، وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات، وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق، وتنهي عن الحقائق، حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين، وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العرض، وإذهاب المروءة، وتضييع الواجبات، وإن سماع شعر رقيق لينتقض بنية الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة...»[23]، فالذي يصف شعر الغزل هذا الوصف، وينهى عنه هذا النهي، كيف يروى منه هذا القدر، وينسب لنفسه هذا الشعر؟

رابعتها - ما يرويه عن نفسه من قصص يُتحرج في العادة من روايتها[24]، وهو الذي كان كثير الخصوم والكارهين والكائدين. ولا يقال إن الرجل كان لا يهاب فيما يرى إنكار المنكرين، ولا يخشى لوم اللائمين، فإن ذلك في الحق. لا في الباطل الذي يراه هو نفسه كذلك. ولذلك قال «ابن القيم» اعتماداً على ما في الطوق: «وأما أبو محمد فإنه على قدر يُبْسه وقسوته في التمسك بالظاهر، وإلغائه للمعاني والمناسبات والحكم والعلل الشرعية إنماع في باب العشق والنظر وسماع

الملاهي المحرمة، فوسع هذا الباب جداً»[25]. وإذا جرينا على ما في الرسالة من أحداث، وأمور يمكن الاستئناس بها - رأينا أنه كتب الرسالة «وقد صارت له شهرة علمية ومقام في الفقه والحديث»[26] كما يقول «أبو زهرة» على أن الأمر الذي يصعب دفعه ما في الرسالة عن ابن حزم، ومعاصريه، وأحداث عاصرها، من أمور ثابتة معروفة.

خامستها - أنه تكلم في رسالة «مداواة النفوس» عن المحبة، فإذا وازنا بين هذا وبين كلامه في «الطوق» وجدنا اختلافاً لا ينبغي أن يكون. فهو يقول في الطوق: «وقد اختلف الناس في ماهيته (أي الحب) وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع... وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال. والشكل دأباً يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس، وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد، والموافقة في الأنداد، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل... فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذاً الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد. فالواجب عن ذلك أن نقول: هذه لعمري معارضة صحيحة، ولكن نفس الذي لا يجب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض السائرة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة. ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة، طالبة له، قاصدة إليه، باحثة عنه، مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد..»[27] فأنت ترى الوهن في المنطق، والضعف في الاستدلال، والإحالة على ما لا دليل عليه، فما الاتصال «بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في

أصل عنصرها الرفيع»؟، وما «الجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي»؟ فلم يعهد هذا في أسلوب «ابن حزم» ذي المنطق الدقيق، والاستدلال القوي، والاعتماد على الواضح الظاهر من الأدلة. وانظر بعد هذا في كلامه في «المحبة» في رسالة «المداواة» يقول: «والمحبة كلها جنس واحد. ورسمها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة منافرته، والرغبة في المعارضة منه بالمحبة. وإنما قدّر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها وانحسامها. فتكون المحبة لله عز وجل» وفيه، وللاتفاق على بعض المطالب، وللأب، وللابن، والقرابة، والصديق، والسلطان، ولذات الفراش، والمحسن، والمأمول، والمعشوق، فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه كما وصفت لك، على قدر الطمع فيما ينال، فلذلك اختلفت وجوه المحبة... ولسنا نقول إن الطمع له تأثير في هذا الفن وحده، لكنا نقول إن الطمع سبب إلى كل هم، حتى في الأموال والأحوال..». فهو هنا لم يذكر ما ذكر هنالك، من ناحية، ومن ناحية أخرى أسلوب التقرير يختلف من حيث الدقة والقوة والوضوح. ونزيد أن اللغة تختلف أيضاً، فلغة «الطوق» فيها شيء من الوهن. ولكن ما خبر الأشعار الكثيرة في الطوق؟

4 - أشعار الطوق:

أما أشعار الطوق - وهذه سادسة الملاحظات - فحدّثْ ولا حرج، فما شئت من نظم غثّ سمج لا ماء فيه - فهو في هذه الرسالة، وكل ما فيها يصلح مثالاً لهذا، إلا أبياتاً قلائل يمكن أن تسمى شعراً. مع أن «ابن حزم» له شعر جيد، وهو وإن كان لا يرقى إلى النماذج العليا، فيه من عناصر الشعر ما يبعده عن أن يكون كلاماً معقوداً بقواف. أما أشعار الطوق فأمرها غريب. انظر إلى هذا النموذج في أول الرسالة:

ودادى لك الباقي على حسب كونه ... تناهى فلم ينقص بشيء ولم يزدْ
وليس له غير الإرادة علة ... ولا سبب حاشاه يعلمه أحدْ
إذا ما وجدنا الشيء علة نفسه ... فذاك وجود ليس يفنى على الأبدْ
وإما وجدناه لشيء خلافه ... فإعدامه في عدمنا ما له وُجدْ[29]

فترى أولاً الجفاف الذي سببه أن الأبيات لم تصدر إلا عن نظر عقلي محض، وليس فيها للعاطفة حظ، وترى ثانياً الألفاظ التي ليست من طريق الشعر، ولا تمتّ إلى التعبير الشعري بماتّة، من مثل «على حسب كونه»، «وليس له غير الإرادة علة»، «وإذا ما وجدنا الشيء علة نفسه»، ثم انظر إلى قوله «وجدنا»، فذاك وجود»، «وإما وجدناه»، «ما له وُجده» لتلحظ التكرار المعيب. وزاد الأمر سوءاً تقييد الرويّ، فصارت الأبيات غاية في الثقل والسماجة. وهذا مثال آخر:

كذب المدعي هوى اثنين حتماً ... مثلما في الأصول أكْذب ماني
ليس في القلب موضع لحبيبين، ... ولا أحدث الأمور بثاني
فكما العقل واحد ليس يهوى ... غير فرد مباعد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شك ... بعيدٌ من صحة الإيمان
وكذا الدّين واحد مستقيم ... وكفور من عنده ديّنان[30]

فلا ترى إلا تحليلاً فكرياً، يبحث عن المثال، ويقرر القاعدة، ويجلب الألفاظ من هنا وهناك، ويضعها كيفما اتفق، فهذه «الأصول» التي «أكذب» فيها «ماني»، والعقل الذي يهوى واحداً «مباعداً أو مدانياً»، وهكذا.. فكل شعر الرسالة - إلا قليلاً - على هذا النحو، مع أن فيها سبعمائة وستة وتسعين بيتاً. فهل شعر «ابن حزم» كله من هذا السبيل؟

5 - جيد شعره:

قد كنت أسيء الظن بشعر «ابن حزم» حتى وقعت على هذه القصيدة التي أراها أجود ما وصل إلينا من شعره. ولا توجد كاملة إلا في المخطوط الذي أشرت إليه، وهي فيه من تسعة وخمسين بيتاً، وأورد منها «الحميدي» ثمانية أبيات[31]، و«ابن بسام» أحد عشر بيتاً[32]، وفيها يفخر «ابن حزم» بعلمه، و«يذكر أصناف ما علم» وقد خاطب بها «أبا المطرف عبدالرحمن بن أحمد بن بشر»، «قاضي الجماعة بقرطبة»[33] وأنا أوردها تاركاً من أبياتها ما لم يتضح لي وجهه، وما تستغني القصيدة عنه:

أخ لي مشكور المساعي، وسيد ... تسرُّ بواديه إذا خانك الصحْبُ
يطالع في سبْل البلاغة مذهبي ... وهل يستوي منها إلى الحزْن والسُّهبُ
وكيف أنا فيها إذا ما تشعبت ... وضاق على طلابها المنهج الرحْبُ
فيا أيها القاضي المبجّل، والذي ... مواردُه منها سرى البارد العذبُ
أعيذك أن ترتاب في أنني الذي ... أتى سابقاً والكل ينجرُّ أو يحبو
ومثلي إذا جدّ الرجال، وأتعبوا ... نفوسهمُ سعياً: وكدّهم الخطبُ
تقدم مسبقاً ثانياً من عنانه ... وغادر من جاراه في رهجه يكبو
أمثلك يعشو عن مكاني ويمتري ... بأني من أفلاك ذا الأدب القطب
أيخفى عليك البدر ليلة، ثمّه ... ولم تستتر عنك النيازك والشهب
وحاشاي أن يمتد زهوٌ لمنطقي ... وأن يستفز الحلمَ في قولي العُجْبُ
ولكنّ لي في يوسف خيرَ أسوة ... وليس على من بالنبي أتسَى ذنب
يقول - وقال الحق والصدق - إنني ... حفيظ عليم. ما على صادق عتب
وما عزني - والحمد لله - مطلب ... من العلم مما أتقن العُجْم والعُرْب
حليفي، ومحيي همتي ومنيرها، ... ورافع ذكرى حيثما اتصل الركب
وإني من خمس وعشرين حجة ... أروح وأغدو وهو صارمي العضب
وخطتي العليا التي لست أتقي ... حياتي منها العذل ما رتع الضب

ومال عميم لست أخشى نفاده ... بإنفاقه، لا بل يزيد وينصبُ
فإن شئت في علم الديانة تلقني ... نقاباً له، لم يخف عني له نقب
وأما أفانين الحديث فإنني ... أنا بحرها الطامي، وينبوعها السكب
وقيدت من فتيا ذوي الفقه ضابطاً ... لحفظي ما طالت به قبلنا الحُقْبُ
وإن لاذ طلاب الكلام بجانبي ... فإني ساقيهم وكلهم شَرْب
وعلمي بما في سر خصمي كعلمه، ... فما غاب عني منه سهل ولا صعب
وإن تذكر الأشعار لم يك خارجاً ... أما في جرير في الرهان ولا كعب
وما ضر شعري (أنني ذو حداثة) ... ولم تحظ بي علماً تميم ولا كلب
وحسبك بي في ذي الأعاريض مقنعاً ... إذا عدت الأوتاد والشطر والضرب
وإما تسائل باللغات ونحوها ... فما صارمي منها إذا عددت ينبو
وإن شئت أخبار الدهور فإنني ... أنا جامع التاريخ مذ نبت الهضب
فما غاب عني أمر ملك (مشيّد) ... ولا شذ عني أمر سلم ولا حربُ
سواء علمي ذكرى قريب ونازح ... ومن حملت أرض من ضمه الترب
وإن تذكر الأنساب كنت نقيبها ... ولم يخف عن ذكراي حي ولا شعب
يسافر علمي حيث سافرت ظاعناً ... ويصحبني حيث استقلت بي الركب
محلته صدري، ومسكن عمره ... بحيث التقى مني الترائب والترب
أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجدّ على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبُ
فإن يُنْزل الرحمنُ رحلي بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة ... وأن كساء العلم آفته القرب
فواعجبا من غاب عنهم تشوّقوا ... له، ودنوّ المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيّق ... على أنه فَيْحٌ مذاهبه سُهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيُّع ... وإن زماناً لم أنل خصبه سغب

ولو أنني خاطبت في الناس جاهلاً ... لقيل دعاوٍ لا يقوم لها طنب
ولكنني خاطبت أعلم من مشى ... ومن كل علم فهو فيه لنا حسبُ
يصدقني في وصفه كل سامع ... يقيناً ولا يأبى لسان ولا قلب[34]

ومن جيد شعره أيضاً هذه القصيدة:

بلغت من لذة الدنيا ذرى أربى ... من لذة العيش والسلطان والنشب
فأذهبت دول الأيام منزلتي ... وزاد فقدي للذات في كربي
وكان مالي لهذا كله تبعاً ... بل صار عوناً لأعدائي على طلبي
لكن رجعت وقد جد الزمان إلى ... كنز من العلم والأخلاق والأدب
فأعجز الدهر أن يودي بواحدة ... منها، وأقصر عني واهي السبب
لا أختشي تضعَ الأيام منزلتي ... : مدى الزمان وعندي أغلب الطلب
لا يستطيعون عزلي عن ولايتها ... إذ كل وال لهم بالعزل في العقب
هذا بلا كلفة مني ولا حرس ... ولا عديد ولا إنفاق مكتسب
وكل من كان في دنياي يصحبني ... ناديته حين خانتني فلم يجب
كلام من جرب الأمرين واتضحت ... له المذاهب من جد ومن لعب
وأن منزلتي في العلم منزلة ... في الملك حظ كحظ الصادق النسب
مازلت أذخره دهري وأنفقه ... دأباً كمثل اللجين المحض والذهب
لو استطعت منحت الناس كلهم ... ما قد تجمع في حفظي وفي كتبي
أأبذل المال يُفنى البذلُ حاصله ... ولست أبذل ما ينمى على النهب!؟
وكيف أستر مُعلى رُتبتي أبداً ... وما يخلّد ذكرى آخر الحقب!؟
أنيس روحي إذا ما الدهر أوحشني ... ونور عقلي وجالي غمة النكب
من فكرتي لي عين لا تغيض ومن ... ماضي لساني ما يمضي مُضِي الشهب
سائل بأي علوم العالمين تجدْ ... عندي ينابيع ذاك العلم من كتبي
فإن أضفتُ إلى ذا الحظ من عملي ... شيئاً أفوز به في يوم منقلب
فقد حصلت على الآمال أجمعها ... وخاب من في سوى ذا كان ذا تعب[35]

وقال أيضاً:

لم أشك صَدّاً ولم أذعر لهجران ... ولا شعرت مدى دهر بسلوان
أسماء لم أدر معناها، ولا خطرت ... يوماً عليّ، ولا جالت بميداني
لكنما دائي الأدوى الذي عصفت ... عليّ أرواحه قدْماً فأعياني
تفرقٌ لم تزل تسري طوارقه ... إلى مجامع أحبابي وخلاني
عجبت مني إذ أشكو توحشه ... وأسفح الدمع سحّاً غير ضنّان
ومهجتي عنده، والقلب مسكنه ... هذا وجدك عيني الحاضر الداني
وشخصه ماثل في ناظري أبداً ... وفي ضميري إذا ما نمن أجفاني
أدعوه دعوة مرتاح لرؤيته ... حسبَ ارتياحي له إذ كان يلقاني
قد كان فيك فؤادي حاسداً بصري ... فالآن يحسد فيك القلبَ عينان[36]

6 – القيمة الفنية

فأنت ترى صحة المعنى، ومتانة اللغة، ومناسبة الصورة، والتحام النظم، وحركة النفس، لكن هذه الأمور نفتقدها في أغلب شعر «ابن حزم»، ودونك ما أشرت إليه من مصادر شعره، فلن تحصل على شيء ذي بال، وشعر العلماء له سمعة سيئة في النقد الأدبي؛ ولذلك يمكن بهذا القدر القليل من شعره الجيد أن نجري مع الشيخ «أبي زهرة» في وصف «ابن حزم» بأنه «أديب الفقهاء»[37].

و«ابن حزم» كان على علم بالشعر، فهو يقول: «.. فقد علم من داخلنا أو بلغه أمرنا كيف توسُّعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكُّننا من الإشراف على معانيها وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه، وكيف قوتنا على صناعته، وكيف تأتي مقصده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه علينا في الإطالة فيه

والتقصير»[38] ولكن التوسع في الرواية وحده لا يكفي، وكثرة النظم وسهولته لا تكفيان أيضاً، وإنما الأمر - فوق ذلك - عناية وتخصص، كما قال ابن سلام (232): «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات»، وهو - مع ذلك - طول دربه، وكثرة مدارسه «وإن كثرة المدارسة لتُعدى على العلم به»[39]. وقد كان لابن حزم في الفقه، والحديث، والأصول، وعلومه الأخرى الكثيرة شاغل أيّ شاغل عن طول الممارسة، وكثرة المدارسة. والله أعلم.

الهوامش

1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 1960م، ط 1، ص 315.

2) السابق، ص 338.

3) أبو عبدالله بن محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م، ص 309.

4) هذا البيت غير مستقيم عروضياً.

5) ابن حزم، رسائل ابن حزم المجموعة الأولى، نشر إحسان عباس، مكتبة الخانجي، مصر، لا تاريخ له، ص 145.

6) الحميدي، جذوة المقتبس، سبق ذكره، ص 309 وما بعدها.

7) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1358هـ، 1939م، القسم الأول، ج 1، ص 138، 145، 282.

8) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المأمون، لا تاريخ لها، ج 12، ص 246.

9) عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر محمد العريان وآخر، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1368هـ، 1949م، ط 1، ص 49.

10) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1970م، ج 3، ص 327.

11) تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، نشر محمود الطناحي وآخر، الحلبي، القاهرة، 1384هـ، 1915م، ط 1، ج 3، ص 214.

12) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1966م، ط 1، ج 11، ص 247.

13) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نشر محمد محيي الدين عبدالحميد، السعادة، القاهرة، 1367هـ، 1949م، ط 1، ج 2، ص 287، 289.

14) سعيد الأفغاني: ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1359هـ، 1940م، ص 94.

15) المقري، نفح الطيب، سبق ذكره، ج 2، ص 284.

16) السابق، ج 2، ص 288.

17) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، بيروت، 1397هـ، 1977م، انظر ص 289 مثلاً.

18) المراكشي، المعجب، سبق ذكره، ص 49.

19) ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، نشر حسن الصيرفي، مطبعة حجازي، القاهرة، 1369هـ، 1950م، انظر مثلاً ص 67.

20) السابق، انظر مثلاً ص 1.

21) السابق، انظر مثلاً ص 68.

22) السابق، انظر مثلاً ص 29.

23) ابن حزم، رسائل ابن حزم، سبق ذكره، ص 65.

24) انظر في الطرق مثلاً ص 62.

25) ابن القيم، روضة المحبين، سبق ذكره، ص 130.

26) محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، آراؤه وفقهه ، مطبعة مخيمر، لا تاريخ له، ط 2، ص 167.

27) الطوق، سبق ذكره، ص 6 وما بعدها.

28) رسائل ابن حزم، سبق ذكره، ص 138 وما بعدها.

29) الطوق، سبق ذكره، ص 6.

30) السابق، ص 26.

31) الحميدي، جذوة المقتبس، سبق ذكره، ص 309.

32) ابن بسام، الذخيرة، سبق ذكره، ص 138.

33) الحميدي، الجذوة، سبق ذكره، ص 309.

34) ديوان ابن حزم، مخطوط بقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة قاريونس، الورقة 32.

35) السابق، الورقة 69.

36) السابق، الورقة 70.

37) محمد أبو زهرة، ابن حزم، سبق ذكره، ص 4.

38) رسائل ابن حزم، سبق ذكره، ص 67.

39) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، 1952م، ص 6، 8.

المصادر والمراجع

1) الأفغاني (سعيد)، ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1359هـ، 1940م.

2) ابن بسام (أبو الحسن الشنتريني)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1358هـ، 1939م.

3) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)، ديوان ابن حزم، مخطوط بالمكتبة المركزية بجامعة قاريونس.

4) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)، رسائل ابن حزم المجموعة الأولى، نشر إحسان عباس، مكتبة الخانجي، مصر، لا تاريخ له.

5) ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، نشر حسن الصيرفي، مطبعة حجازي، القاهرة، 1369هـ، 1950م.

6) الحميدي (أبو عبدالله محمد بن أبي نصر)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

7) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

8) أبو زهرة (محمد)، ابن حزم حياته وعصره - آراؤه وفقهه، مطبعة مخيمر، لا تاريخ له، ط 2.

9) السبكي (أبو نصر عبدالوهاب بن علي)، طبقات الشافعية الكبرى، نشر محود الطناجي وآخر، الحلبي، القاهرة، 1368هـ، 1949م، ط 1.

10) ابن سلام (محمد الجمحي)، طبقات فحول الشعراء، نشر محمود محمد شاكر، دار المعارف، 1952م.

11) عباس (إحسان)، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 1960م، ط 1.

12) ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبي بكر)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، بيروت، 1397هـ، 1977م.

13) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1966م، ط 1.

14) المراكشي (عبدالواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر محمد سعيد العريان وآخر، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1368هـ، 1949م، ط 1.

15) المقرى (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نشر محمد محيي الدين عبدالحميد، السعادة، القاهرة، 1367هـ، 1949م، ط 1.

16) ياقوت (الحموي) معجم الأدباء، دار المأمون، لا تاريخ له.